حول تاريخنا في اسبانيا

بقلم الدكتور خالد الصوفي

حدثت الانطلاقة العربية الاسلامية في اوائل القرن السابع الميلادي ، فخرجت القبائل العربية من صحرائها وانقضت على البلاد المجاورة فاحتلتها ودخلت في حوزة الدولة الناشئة الجديدة معظم املاك الامبراطوريتين الرومانية والفارسية ، اللتين ماعتمتا ان تداعتا امام قوى العرب والاسلام فامتد نفوذ الامبراطورية الجديدة من الشام الى المحيط الاطلسي ، وسيطر العرب على قسم من بلاد السند والهند . بل اضطر ملك الصين ان يطلب منهم الصلح حين استطاع قتيبة بن مسلمة الباهلي الوصول الى كاشغر عاصمة التركستان الصينية .

هذا ولم تنج اراضي روسيا الحالية نفسها من غزو العرب اذ احتلوا مدة من الزمن ، الاراضي الواقعة بين نهري سيحون وجيحون في التركستان الروسية .

وهكذا قبل ان يمضي قرن واحد على بدء انسياح العرب وظهور الراية الاسلامية ، اصبحت معظم قارتي اسيا وافريقيا خاضعة للفاتح العربي . بيد ان الفاتحين الجدد كانوا يعتقدون برسالة سامية الهية جعلتهم لايقنعون بالسيطرة على القارتين المذكورتين وانما ارادوا مد سيطرتهم الى القارة الثالثة الهامة انذاك : اوروبا .

كانت الامبراطورية العربية تتصل حينذاك باوروبا من الجهتين الغربية والشرقية . اما اتصالها بها من الغرب فقد كان عن طريق المغرب (مراكش) واما من الشرق فقد كان عن طريق اسيا الصغرى والقسطنطينية. لكن لابد ان اذكر هنا ان القسطنطينية كانت تابعة انذاك للامبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطا) . ولذلك كان يعتمل في نفوس الخلفاء المسلمين رغبة شديدة في احتلال هذه المدينة التاريخية المنيعة كي يوجهوا ضربة قاضية الى الامبراطورية البيزنطية ، ويضعوا ايديهم على تلك المدينة الضخمة التي كانت تعتبر المفتاح الرئيسي للقارة الاوروبية .

اختمرت فكرة القسطنطينية في نفس اول خلفاء بني امية ، معاوية بن ابي سفيان ، فامر بتنفيذها حالا ، ولكن الحصار البري ـ البحري الذي فرضه الجيش العربي على المدينة لم يكلل بالنجاح رغم الحصار الطويل لاسوارها ، وذلك بسبب مناعتها وقوة الدفاع عنها . ثم تم المشروع حوالي نصف قرن تقريبا حتى عاد فبعث على يدي الخليفة سليمان بن عبد الملك الذي جهز اسطولا ضخما وامره بالاستيلاء على عاصمة بيزنطا . ولكن في هذه المرة ايضا استطاعت النار الغريغورية ان ترغم المحاصرين على التراجع . ومع ان القوى العربية كانت تبدي في كل مرة عزما وجلدا وتفانيا في الحصار الا ان النجاح لم يحالفها في كلتا المرتين ، وفشل مشروع الخلافة في التوسع في اوروبا عن طريق الشرق .

بضعة سنوات قبل ان يحدث حصار القسطنطينية الثاني ونظرا لعدم تاكد العرب من استطاعتهم النفوذ الى اوربا عن طريق الشرق اخذ بعض المسؤولين بينهم يفكرون في تنفيذ ذلك من الناحية الغربية اعني : اسبانيا.

ولا مجال هنا لان اعرض الوضع في شمالي افريقيا وفي المغرب (مراكش) خاصة تحت الحكم العربي منذ ان وصل عقبة بن نافع الى شواطىء المحيط الاطلسي وخاض البحر بفرسه قائلا : « يارب لولا هذا البحر الخضم لمضيت في البلاد مجاهدا في سبيلك ، انشر دينك المبين رافعا راية الاسلام فوق كل مكان حصين استعصى على جبابرة الاقدمين » ، ولا مجال ايضا لان اتكلم باسهاب عن حالة اسبانيا السياسية والاقتصادية والعسكرية انذاك اذ ليس هذا هو مابتغيه في مقالتي هذه ولذلك اكتفي بالقول ان دوافع الانسياح في اوربا عن طريق اسبانيا تجمعت لدى المسؤولين العرب في الوقت الذي كان فيه موسى بن نصير يحكم شمالي افريقيا بتفويض من الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك وفي الوقت الذي كانت فيه اسبانيا تحكم من قبل قائد قوطي اسمه رودريك .

لم يكن رودريك قديم العهد بالملك اذ لم يكن قد مضى على انتزاعه العرش من اصحابه الشرعيين اكثر من سنة كان قبلها قائدا عاديا لغيره من قواد الاشراف في الجيش الاسباني . وقد انتزع رودريك العرش من سلفه بدعوى القضاء على الفساد والفوضي واعادة الهدوء والطمانينة والعدل الى النفوس لكنه ماعتم ان انغمس هو بدوره في ابهة الملك وترفه وملذاته تاركا بذلك المجال لاعدائه من انصار الملك المخلوع للتامر ضده والعمل على اسقاطه والانتقام منه .

وكان هناك على الشاطىء الجنوبي من مضيق جبل طارق في اقصى الشمال من مراكش مدينة صغيره تدعى سبته كانت لاتزال هي الوحيدة التابعة لاسبانيا بين مدن شمالي افريقيا كلها . واما حاكم هذه المدينة من قبل رودريك فقد كان يدعى « يوليان » وكان من انصار الملك القديم وينتمي الى الحزب المعادي للعرش . كان هذا الحاكم يبذل ما في وسعه لمقاومة العرب ومنعهم من الاستيلاء على اخر معقل لاسبانيا في شمالي افريقيا ، وهو مدينة سبته كما قدمت . ولم يكن خلافه الشديد مع مليكه الاسباني وانتماؤه بشكل متطرف الى الحزب المعارض ليدفعه الى خيانة وطنه لو لم تحدث حادثة تجمع الروايات العربية على انها كانت الى جانب العوامل السياسية ، السبب المباشر في احتلال العرب لاسبانيا .

كان من عادة الاشراف في العصور الوسطى ارسال بناتهم الى البلاط كي يتلقين هناك دروسا في التربية الاجتماعية ويرين عن كثب حياة الطبقة الارستقراطية في بلادهم . وكان لحاكم سبته المذكور يوليان فتاة رائعة الجمال اسمها « فلورندا » ارسلها هو ايضا بدوره الى بلاط الملك رودريك كي تقضي فيه ردحا من الزمن كوصيفة للملكة . وقد استرعى جمالها انظار ملك اسبانيا رودريك فشغلت فكره ولم يعد يستطيع التفكير الا بها ، فاخذ يتقرب منها شيئا فشيئا حتى توطدت الصلات بين الاثنين فاقدم على اغتصابها وانتهاك عفافها ثم اعرض عنها .

سمع بوليان والد فلورندا وحاكم سبتة بالخبر فثارت ثائرته خاصة وانه من اعداء الملك السياسيين وصمم على الانتقام لشرف ابنته مهما كلفه ذلك غاليا . ومن اجل الوصول الى هدفه لم ير حاكم سبتة حلفاء

اقوياء يستطيع ان يستنصرهم ويستعديهم على مليكه الظالم سوى العرب ، فما عتم ان اتصل بواليهم موسى بن نصير وعرض عليه مساعدته لاجتياز مضيق جبل طارق وغزو شبه الجزيرة الايبرية .

اغلب الظن ان يوليان وحلفاءه من اعداء الملك رودريك لم يقصدوا بدعوة موسى ان يحتل العرب اسبانيا وان يحكموها بل كان مشروعهم ان يستعينوا بالعرب على محاربة المغتصب واسقاطه واستخلاص الملك لانفسهم .

على اي حال رحب الوالي العربي بعرض يوليان وارسل الى الوليد بن عبد الملك في دمشق يخبره بالامر ويستاذنه في القيام بتلك العملية الحربية الهامة . تردد الخليفة الوليد في بادىء الامر ثم اذن له ان يفعل بعد ان ياخذ كل الاحتياطات الممكنة حتى لاتكون خدعة من يوليان يريد بها تغرير العرب والقضاء على نفوذهم في تلك المنطقة .

كان موسى مثقفا حكيما فلم يشأ ان يخاطر منذ اللحظة الاولى بالاسطول والجيش العربيين فاكتفى بارسال حملة صغيرة مؤلفة من خمسمائة جندي بقيادة طريف بن مالك سنة ٩١ هـ (٧١٠م) على اربع من سفن يوليان نفسه ومعهم ادلاء من القوط . نزلت الحملة في اقصى الجنوب من اسبانيا في نقطة تدعى الجزيرة الخضراء واستولى العرب على كثير من الاموال ثم عادوا دون ان يتوغلوا داخل البلاد لان غاية الحملة كانت غاية استطلاعية .

قد اثبتت هذه الحملة لموسى امرين هما اولا ضعف قوى الدفاع في الاندلس . وثانيا صدق يوليان في حلفه للعرب .

حينذاك اعد موسى الحملة الكبرى لغزو اسبانيا وسلم قيادتها الى طارق بن زياد حاكم مدينة طنجة انذاك . واستطاع هذا المولى الاسود طارق بحفنة من الجنود لايتجاوز عدد افرادها عشر الجيش القوطي الذي اشتبك معه ان يخط في كتاب القدر صفحة خالدة من البطولة والجراة والاقدام .

لم يكن مع طارق سوى سبعة الاف من الجنود بينما كان رودريك يقود حوالي مائة الف من الجند المدربين النظاميين . ورأى طارق بان الفرق شاسع بين عدد جنده وعدد جنود الاعداء فارسل الى موسى يستنجده بحملة جديدة فارسل اليه هذا خمسة الاف جندي جديد انضموا الى سابقيهم فاصبح عدد الجيش العربي اثني عشر الف مقاتل ، استطاعوا التغلب على عشرة اضعافهم تقريبا في المعركة الهائلة التي جرت عند « نهر وادي لكه » Guadalete والتي دامت سبعة ايام وانتهت بهزيمة القوط هزيمة منكرة واختفاء مليكهم رودريك دون ان يعرف مصيره بعد ذلك .

وقد قال بعضهم ان رودريك مات مدافعا عن عرشه وامته بينما ذكر البعض الاخر انه فر عقب الهزيمة على ظهر جواده ولكنه غرق في مياه النهر وعثر على جواده وسرجه الذهبي دون ان يعثر على جثته . والمهم ان العرب قد انتصروا ومات عدوهم رودريك فنسج الاسبان الاساطير حول شخصيته وظلوا يرددون مدة من الزمن انه لم يمت وانه سيعود لينقذ البلاد من ايدي الفاتحين العرب .

بعد معركة نهر وادي لكه لم يلق العرب المسلمون صعوبات كبيرة في الفتح فاستطاعوا في بضعة اشهر ان يستولوا على سائر المدن الاسبانية ووصل طارق الى جبال استورياس فعبرها وانتهى الى مدينة المائدة خلفها فعثر هناك على مائدة سليمان بن داوود وهي خضراء من زبرجد حافاتها منها وارجلها ثلثمائة وخمس وستون . ويقال ان هذه المائدة غنمها الرومان من المشرق او بيت المقدس في بعض غزواتهم ثم نقلوها الى روما فغنمها القوط حين افتتحوا روما ونقلوها الى اسبانيا حيث عثر عليها العرب .

واستمر طارق في سيره حتى اشرف على ميناء « خيخون » Jijon في اقصى الشمال فرده عباب المحيط عن التقدم فعاد الى طليطلة حيث تلقى اوامر موسى بوقف الفتح .

لن اتابع هنا كلامي عن تطور الحكم العربي في اسبانيا لانه لامجال كذلك في هذا المقال الضيق وانما اريد ان اخلص الى القول بان العرب بعد ان توطد ملكهم في ربوع اسبانيا واختلطوا باهل البلاد المفتوحة وامتزجوا بهم امتزاجا تاما عن طريق التزاوج والتقارب والتجارة والثقافة ... انشاوا في تلك البلاد حضارة مزدهرة رائعة فاقت كل حضارة اخرى في العالم انذاك .

ان الدولة العربية التي اسسها موسى وطارق في اسبانيا والتي ساعد على تثبيت اسسها بعض الولاة الذين اتوا بعدهما امثال السمح بن مالك الخولاني وعبد الرحمن الغافقي ويوسف بن عبد الرحمن الفهري وغيرهم والتي وصلت الى اوج عزها ومجدها وازدهارها في عهد خلفاء عبد الرحمن الداخل الاموي ، ان هذه الدولة العربية في اسبانيا هي التي نقلت الى الغرب حضارة العرب وهي التي سمحت للاوروبيين بالاطلاع على الكنوز العلمية العربية والاغتراف منها ومحاولة تقليدها دون ان يتوصلوا الى ذلك حتى اوائل عصر النهضة في القرن السادس عشر الميلادي .

ان المصادر التاريخية القديمة العربية منها والاجنبية تفيض بذكر تقدم العلوم والفنون والمعارف العربية في العصور الوسطى فتظهر لناكيف انهم استطاعوا ان يسودوا العالم سياسيا واقتصاديا وفكريا حقبة من الزمن لاتقل عن السبعة قرون ، بين القرن السابع والقرن الرابع عشر ، وكيف انه في الوقت الذي كان فيه عرب الاندلس يكتبون اروع المؤلفات العلمية والفلسفية والادبية كان معاصرهم شارلمان يحاول ان يتعلم القراءة والكتابة ، وكيف انه في الوقت الذي كانت قرطبة فيه محط امال العلماء والادباء من جميع انحاء العالم ونهاية مطافهم ومقصدهم من كل حدب وصوب ، كانت اوروبا حينذاك غارقة في ظلام الجهل والتاخر يتنازع السيطرة عليها قبائل متوحشة من الفال والجرمان والسكسون وغيرهم .. لايفقهون من الحياة سوى الفتح والتدمير والسلب والنهب ، اللهم الا بعض اثار المدينة التي بقيت في القسطنطينية وبعض اجزاء ايطاليا .

ربما شغل امراء العرب الاولون في الاندلس عن البناء والعمران والزخرفة باخماد الثورات وتوطيد الحكم ، ولكن ما ان وصل عبد الرحمن الاول الاموي وانتصر على الصعوبات التي كانت تواجهه في الاندلس واسس ملكا ثابتا له ولاحفاده من بعده حتى اتبع سياسة البناء والعمران وتشجيع الادب والعلم . وكان من اروع مآثره بناء الجامع الاموي في قرطبة ، هذا الجامع الذي كان ولا يزال يعتبر درة من درر البناء في العصور الوسطى والحديثة معا .

*

وقد هبطت الى قرطبة في سنة ١٩٥٦ ، وكانت تلك هي المرة الاولى التي يتاح لي فيها زيارة الاندلس ، اذ زرتها بعد ذلك عدة مرات بين سنة ١٩٥٦ - ١٩٥٩ وكانت جل رغبتي منصبة على مشاهدة ماتركه العرب من الاثار الخالدة في تلك المدينة العظيمة التي كانت تعد نصف مليون نسمة على الاقل والتي بقيت عاصمة للعرب

ماينوف على اربعة قرون واحتفظت بمركزها حتى بعد زوال الخلافة الاموية منها .

كان اول مافكرت به هو الذهاب لمشاهدة الجامع الذي بدأ بناءه عبد الرحمن الداخل في سنة ١٦٨ هـ (٧٨٤م) واتمه بعده خلفاؤه من الامويين . ولم احتج الى السير اكثر من بضع دقائق من وسط المدينة حتى وجدت نفسي وجها لوجه امام اروع جامع بني في العالم الاسلامي حتى يومنا هذا .

يشغل الجامع مساحة واسعة تقدر بنحو ثلاثين الف متر مربع على الاقل ، وله واحد وعشرون بابا طليت بالنحاس الاصفر اللماع ، وفي داخله الف ومائتان وتسعون عمودا من المرمر المصقول ، قد اجريت الفضة في حيطان محرابه المزين بالفسيفساء . كان يتسع الجامع لعدد ضخم جدا من المصلين ويحيط به عدد من المآذن . اما المنبر فقد صنع من العاج ونفيس الخشب ، وهو مؤلف من ستة وثلاثين الف قطعة منفصلة . اما الماء فكان يصل اليه من الجبال الى الينابيع التي اعدت لوضوء المصلين وكانت هذه الينابيع تقذف بمائها ليلا ونهارا .

لو اردت ان استرسل في سرد الاحصاءات عن المسجد الجامع الاموي في قرطبة ، لملأت بذلك الصفحات ولكن يهمني اكثر من ذلك ان اكتفي بذكر مابقي اليوم من ذلك الجامع . فالابواب قد بقي معظمها حتى يومنا هذا محافظا على الوانه وجماله ، والاعمدة لا زالت موجودة لم ينقص منها شيء ، والمحراب لازال على روعته التي تأخذ بمجامع القلوب ، وسقف الجامع لازال تحفة من تحف فن البناء في العصر الوسيط ، والزجاج الفاخر الذي استحضره صناع ماهرون من بيزنطة لازال يلمع لمعان الجواهر واشجار البرتقال المورقة في صحن الجامع لا زالت تساير امتداد الاعمدة ... ولكن شوه ذلك كله بتحويل هذا الجامع الى كاتدرائية كبيرة وضع في وسطها الهيكل الاكبر والصلبان والشموع فجرد الجامع من صفته الاساسية على الرغم من ان عددا جما من العلماء والمواطنين الاسبان انتقدوا ذلك وفضلوا الاحتفاظ بهذا الاثر الفني الرائع .

وقد وقفت اشاهد عظمة ذلك المسجد وجماله وروعة بنائه ودقة زخرفته فعادت بي الذكرى الى ايام مجد العرب وازدهار قرطبة وتخيلت كيف ان التفرقة والانانية والمصالح الخاصة قضت على الدولة العربية في تلك الربوع .

لم يكن المسجد الجامع هو الشيء الوحيد الذي تركه العرب شاهدا على حضارتهم اذ ان مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر في احد ارباض قرطبة ليجعلها عاصمة جديدة لملكه بذت عواصم العالم كلها وأصبحت انذاك اية من ايات الله .

لن افيض فيما كانت عليه الزهراء من العز والروعة والسؤدد والعظمة والجمال ، بل اكتفي بالقول بانني رأيتها وتجولت فيها واطلعت على مابقي منها فلم ار فيها الشيء الكثير اذ ان عروس الاندلس قد اندثرت اندثارا يكاد يكون شاملا ولم يبق منها الا الشكل العام وبعض الجدران المتداعية وبعض البلاطات الجميلة التي كانت تزين افنيتها وبعض الاوائل والادوات التي تعثر عليها مصلحة الاثار الاسبانية التي تنقب في تلك الاطلال ولكن هذا القليل الذي رأيته افرح نفسي مع ذلك لانني كنت اطل بام عيني على عاصمة عبد الرحمن الناصر عاصمة الحضارة في العالم انذاك .

انتقلت بعد ذلك الى اشبيليه فكان اول ماوقعت عليه عيني من المدينة مئذنتها الشامخة المسماة « الخيرالدا » Jiralda

وهي مئذنة المسجد الجامع الذي بناه خليفة الموحدين ابو يعقوب يوسف سلطان المغرب والاندلس في سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٢م) اثناء اقامته في اشبيليه . وقد خرج هذا المسجد بعد بنائه تحفة في الاتقان والجمال واشتهر خاصة بمنارته الذائعة الصيت « الخيرالدا » .

لما سقطت اشبيليه في يد النصارى سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨م) حول مسجدها الى كنيسة فهدم معظمه ولم يبق منه الان سوى صحنه الذي يوجد في وسطه نافورة اندلسية ، وباب الجامع الرئيسي الواقع في شمالي الصحن والذي لازال يحتفظ بزخارفه البرونزية الاسلامية وقد نقشت على كل من قبضتيه الضخمتين مايأتي : « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد » .

اما المئذنة « الخيرالدا » فقد بقيت على ماكانت عليه ، ويبلغ ارتفاعها ستة وتسعين مترا يصعد اليها من الداخل بواسطة مساطب منحدرة مرصوفة باجر تبلغ حوالي الثلاثين ولكل مسطبة شباك صغير يطل على الخارج وقد زينت واجهاتها بنقوش عربية ومغربية بديعة .

صعدت الى اعلاها واشرفت على مدينة اشبيلية التي تعتبر الآن رابع مدينة في اسبانيا وتجمع بين القديم والحديث فشاهدت منها القصر الرائع الذي بناه المعتمد ابن عباد الى جانب المسجد الجامع والذي لازال موجودا محافظا على زخارفه ونقوشه وكتابته العربية والوانه وطابعه وروعته ....

لم اترك رؤية القصر تفوتني طبعا ، ولا ابالغ اذا قلت انني اعجبت به اعجابي بقصر الحمراء في غرناطة فيما بعد وخاصة البهو الرائع المسمى ببهو السفراء .

اما البرج الثمن الذهبي الذي يقع على شاطىء نهر الوادي الكبير

هل قرأت

ديواني الشاعرتين الكبيرتين

نازك الملائكة وفدوى طوقان ؟

قرارة الموجة

وجدتها

اطلبهما من

دار الآداب

Guadalquivir الذي يخترق مدينة اشبيليه في وسطهـــا فهو من بقايا اسوار المدينة العربية وقد حول الان الى متحف صغيـــر جميل يجلب اليه الكثير من السائحين .

ثم ماذا اقول عن غرناطة وقصر الحمراء وجنة العريف ؟ لم اتخيـــل نفسي وانا في غرناطة الا في مدينة شرقية بحتة تكتنفها مسحة اوروبية انما تحتفظ بعض احيائها بطابع اندلسي غالب يعيد الى الاذهـــان حياة المدينة وشكلها منذ الف سنة خلت .

السواح كثر في غرناطه كما في مدن الاندلس الاخرى الهامة . ففنادقها وشوارعها ومخازنها مكتظة بهم وكلهم يتجهون نحو الاثار العربية الخالدة وبالدرجة الاولى نحو قصر الحمراء وقصر جنة العريف والحدائـــق المحيطـة بهمـــا .

ان السلطان يوسف ابي الحجاج اعظم سلاطين بني نصر هو الذي بنى قصر الحمراء في سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨م) ، وقد بناه على هضبة مرتفعـة تطل على غرناطه كلها تقريبا .

كنت وانا اصعد الهضبة متجها اليه اشعر بشعور من الغبطة والفـرح يعتمل في نفسي لانني قادم على رؤية ذلك الاثر العربي الرائع الـــذي يشهد على سمو الفن الاندلسي وعلو مكانته في العصر الوسيط .

مئات بل الوف بل عشرات الالوف من السواح يقصدون يوميا ذلـــك القصر الاثري العظيم ويقفون ايا كانت جنسيتهم ، مشدوهين امـــام تلك النقوش وتلك الافاريز الرخامية وتلك الابهاء الواسعة والساحـــات الكبيرة والاعمدة المرمرية اللطيفة والبرك الجميلة النوافير المختلفـــة الاشكال ، والقبب المزينة المرتفعة ، والزخاريف الفريدة من نوعها ،والاروقة المتعددة الطويلة ، والاسود التي تزار كلما مر بها الهواء وتصب مـــن افواهها ماء عذبا قراحا ... يقف كل اولئك السائحين ويتاملون تلـــك الروائع العربية فيعجبون من صناعها الذين بلغوا منذ اكثر من الـــف سنة ذلك الشاو من الحضارة والمدنية .

لقد شعرت ايها القارىء العزيز وانا اتجول في فناء الريحان وفـي بهو السفراء وفي قاعة الإختين وفي فناء الاسود وفي قاعة بني ســـراج وفي قاعة الملوك ... وفي قصر جنة العريف المجاور لقصر الحمراء وفي الحدائق الملكية المحيطة بكل هذا ، شعرت وانا اتجول ضمن مجموعـــة السواح الذين كانوا يزورون القصر انذاك ، بالغبطة والفخر والعزة تملأ جوانحي وانا استمع الى شرح الدليل يقص علينا قصة ذلك القصر ويشرح لنا قصة بناء كل حجرة من حجره واسم الملك او المهندس العربي الـــذي اشرف على بنائها ، شعرت بالسعادة لكوني عربيا وتمنيت ضمنا ان يعلم الباقون بانني عربي اذ كنت متاكدا ان نظرتهم الي حينذاك سيشوبهـــا كثير من الاعجاب والاكبار لكوني حفيدا من احفاد بناة قصر الحمراء .

اما الابراج المحيطة بالقصر فلا زالت كما كانت عليه واشهرها بـــرج قمارش وبرج السيدات وبرج الاكام وبرج الاسيره وبرج الاميرات وبـــرج المـاء وغيـــرهـــا ...

ليست هذه هي الاثار العربية الوحيدة الباقية في غرناطة بل هنـــاك في كل زاوية من زوايا المدينة اثر اندلسي باق ولو بصورة جزئية كمـــا هو الامر في قصر شنيل الذي نرى على مدخله اية قرانية هي « لاغالب الا الله » شعار ملوك بني نصر طوال حكمهم ، وقد نقش ايضا في عقد المدخل مايأتي :

يافتي ياأملي انت الرجـاء انت الولي
فيا للنبي المرسلي اختم بخير عملي

لو اردت ان احدثكم عن طليطلة ، واثارها وعن سرقسطة وقصـــر الجعفر فيها وعن مالقه وقصبتها وعن المرية وقلعتها وعن رنده والقنطره العربية فيها وعن مدينة طريف وحصنها وعن الجزيرة الخضراء والاثـــار العربية المتفرقة الباقية فيها وعن المدن الاسبانية الباقية لطال بي البحـــث وتشعـــب .

ولذلك فانني انتقل الى القول بان هذه القرون الثمانية تقريبا التـــي قضاها العرب مابين سنة ٩١ هـ ـ ٨٩٨ هـ (٧١١ ـ ١٤٩٢ م) ، فـــي هذا الجزء الهام من اوروبا ، والاثار الملموسة الخالدة التي تركوها فيهـــا ليس فقط على صفحات الكتب انما على اديم الارض ايضا ، هـــذه الاثار التي لازالت قائمة مزهوة بنفسها وببانيها والتي تجلب لاسبانيـــا عددا لايستخف به من السواح الاجانب من اقصى اقطار العالم ، هـــذه الفترة وهذه الاثار تستحق من كل مواطن عربي الاهتمام بتاريخهـــا وبنشاتها لانني اقول مع الاسف ان المهتمين بالتاريخ الاندلسي هم قلائـــل مع ما لهذا التاريخ من اهمية ومن قيمة في الحضارة العالمية ، فلـــو اراد القارىء العربي الرجوع الى مصدر علمي حديث لتاريخ العرب فـــي اسبانيا لما استطاع ان يجد على ماأعتقد سوى النزر اليسير جدا مـــن المؤلفات ، مما لايكفي ابدا لالقاء ضوء على هذه الحقبة الطويلة المجيدة التي قضاها العرب في شبه الجزيرة الايبرية وخاصة الفترة المتاخرة فترة ملوك الطوائف في الاندلس الذين كانت حالهم تشبه الى حد ما حالـــة الدول العربية في الوقت الحاضر التي هي اشد ماتكون حاجة للاعتبار بما جرى منذ الف سنة بالاندلس لتوحد الصف وتجمع شملها فـــي دولة قوية يستحيل على الدول الكبرى معها النفوذ الى قلبها والتدخـــل فـــي شؤونهـــا .

وانه لما يحز في النفس ان يضطر القارىء العربي الى الرجوع الـــى الكتب الاسبانية او الاجنبية بصورة عامة كي يطلع على تاريخ العـــرب في اسبانيا مع ان من صنعوه احق بكتابته من غيرهم .

هذا والادب الاندلسي الرقيق الرفيع الذي يملأ صفحات الكتـــب الادبية والتاريخية القديمة لايستحق عناية اقل من التاريخ الاندلسي . كما ان الاثار الباقية في انحاء اسبانيا كلها لما يشجع على الاهتمـــام بدراسة هذه الفترة من مختلف النواحي ، والاطلاع خاصة على المؤلفات القيمة الرائعة التي تركها العرب الذين عاشوا هناك والذي لازال قسم وافر منها محفوظا في دير الاسكوريال قرب مدريد وفي المجمع التاريخي الملكي الاسباني وفي مدرسة الدراسات العربية في مدريد وفي مكتبات المستشرقين في غرناطة وطليطلة وغيرها .... كي توفي هذه الفتـــرة حقها المفموط من الدراسة ويصبح بمتناول الجميع الاطلاع على فتـــرة من ماضيهم كان اسلافهم فيها اسياد العالم حضاريا وسياسيا وعسكريا .

خالد الصوفي

كتابان خطـيران

عارنـا في الجزائـر : لجان بول سارتر
الجـــلادون : لهنري اليـــغ

ترجمة عايدة وسهيل ادريس

دار الاداب